اللغة العربية

هل هي كافية اهلها ووافية بحاجاتهم ؟

انّ هذا الموضوع الخطير الشأن والعظيم الاهميّة من اقدم المواضيع التي تناولها المقتطف واعارها جانب الاهتمام . فلقد طالما رأيناهُ يُعنى بالبحث فيهِ ثم يستأنفهُ عوداً على بدء موجهاً اليهِ التفات القرّاء ومشوّقاً الادباء الى معالجتهِ وخوض عباب المناظرة فيهِ

ومن يتصفح مجلداتهِ منذ انشائهِ الى الآن يجدها تتضمّن عدّة مناظرات في هذا الموضوع كان لكاتب هذه السطور حظ الاشتراك في اكثرها . اذكر منها على الخصوص المناظرة الاولى التي جرت سنة ١٨٨١ أي منذ اربع واربعين سنة . وكان المقتطف نفسهُ قد وطأ لها خير توطئة بمقالة انشأها بعنوان « اللغة العربيّة والنجاح » ونشرها في الجزء السادس من سنتهِ السادسة . والثانية سنة ١٨٨٧ — ١٨٨٨ أي في سنة المقتطف الثانية عشرة . والثالثة سنة ١٩٠٢ . والموضوع الذي دارت عليهِ رحى المناظرات لا يختلف عن المعنى المستفاد من عنوان هذه المقالة اي البحث في كفاية اللغة العربية لأهلها ووفائها بحاجاتهم . وانقسم الباحثون فيهِ . فبعضهم زعموا انّ اللغة عاجزة عن كفاية اهلها ولن تصلح لقضاء هذه الحاجة ولا بدّ من اتخاذ لغة العامّة أو لغة اجنبيّة بدلاً منها . وزعم فريق آخر انها كافية اهلها كلّ الكفاية وليست في حاجة الى اقلّ اصلاح على الاطلاق . وارتأى فريق ثالث انّ اللغة العربية ليست بكافية كفايةً تامّة كما زعم الفريق الثاني ولا هي عاجزة كلّ العجز كما زعم الفريق الاوّل . ولكنها في حاجة شديدة الى اصلاح يقوّيها ويرقّيها حتى تتمكن من كفاية أهلها والوفاء بحاجاتهم وكان المقتطف — وأظنّهُ باقياً الى الآن — في مقدّمة انصار هذا الرأي . فلم يستصوب قط ابدال لغة العامّة أو احدى اللغات الاجنبيّة باللغة الفصيحة بل قيّل غير مرّة هذين الرأيين وأبان فسادها من وجوه كثيرة لا محلّ لذكرها

اذن اللغة العربية غير بالغة شأو اللغات الحيّة في الارتقاء والكفاية وهي في حاجة الى التنمية والترقية . ولا بدّ من وسائل تُستخدم لقضاء هذه الحاجة . والاّ لم نرَ مسألة كفايتها يتكرر عرضها على بساط البحث من قديم الزمان الى الآن

غيرة في غير محلها

ولا يخفى ان هذه المسألة من المسائل التي يكثر البحث فيها ولكن قلما ينتهي بالاتفاق عليها . لان النزاع ينشب بين المتباحثين منذ شروعهم في المباحثة ولا ينحصر في ما يراد استخدامهُ من الوسائل بل يجاوزهُ الى الموضوع نفسهِ ومعها يعظم الاختلاف على الوسائل التي ينبغي اتخاذها لترقية اللغة يظلّ أيسر خطبًا من الاختلاف على حاجة اللغة الى الترقية. ولقد تصدّى المفكّرون غير مرّة لبحث في هذا الموضوع . ولسوء الحظ كنّا كلّ مرّة لا نلبث أن نرى نار عزيمتهم صائرةً من الشبوب الى الخمود ورياح مساعيهم مدرجةً بعد الهبوب في اكفان الركود . وهذه الخيبة المُرّة لم تكن علّتها ما كان يجري بين الباحثين من الخلاف على دواء الداء بل العلّة كلّ العلّة كانت من قبل فريق من ادعياء الغيرة على اللغة . هؤلاء كانوا كلّ مرّة يتعرّضون للباحثين في وسائل الترقية فيسفّهونهم ويزدرون مشوراتهم ويخالفونهم فيما يرونهُ من احتياج اللغة الى الترقية والاصلاح لزعمهم انها ارقى اللغات وأوفاهنّ بحاجات أهلها في جميع الأزمنة والاوقات . وبمثل هذه المزاعم التي لا تستند الى شبهِ ظلٍ من الحقيقة كانوا يخدّرون اعصاب الشاعرين بحاجتها ويثبّطون عزائم الساعين في قضائها جانين على اللغة وأهلها بغير في غيرة محلها

والحقيقة

والحقيقة ان لغتنا في اشد احتياج الى الترقية بشهادة كل من يزاول فيها الكتابة نظمًا ونثرًا ويتحرّى افراغ معانيهِ في قوالب صحيحة فصيحة . فيتلمّسها فتشمئزّ اليها عرق القريحة . وكثيرًا ما يُعييهِ ذلك فيكفّ عن التحرّي مضطرًّا الى الرضى بالقوالب كما جاءت لا كما أحبّ

ولقد آن لسدنة اللغة وحماتها الذائدين عن ذمارها والشاعرين بشدة احتياجها الى الاصلاح ان ينشطوا من عقال السكوت بعد ما اتّضح مجال القول لمن اراد وخلا جوّ السعي من المعارضين أو كاد

والترقية المطلوبة صعبة ولكنها ليست مستحيلة . اي ان اللغة العربيّة ليست من الخمود والجمود بحيث يتعذر احياؤها وانماؤها بل هي باجماع الباحثين فيها من اللغات الحية النامية ولها خواص النشوء والتحول والجري على مقتضيات الزمان والمكان . ولكن طرأ عليها ما وقفها عن العمل بحسب هذه الخواص . فما الوسائط التي تستخدم لاصلاح الخلل الطارىء ؟

هل كانت اللغة العربيّة كافية أهلها ؟

ليس فينا من ينكر أنّ لغتنا كانت كافيةً للتعبير عن اغراض اهلها والدلالة على كل ما ارادوا تبيانهُ بالكلام او بالكتابة

وامامنا تاريخ العرب منذ الجاهليّة الاولى وفي ما تلاها من العصور التي بسقت فيها ادواح مجدهم وشجت اعراق عزّهم وورفت ظلال حضارتهم . فلنتصفّحهُ ونطالع فيهِ ما شئنا ممّا جادت بهِ قرائح شعرائهم وخطتهُ اقلام كتابهم فنجدهُ غايةً في جمال الاسلوب وصحة التركيب وفصاحة التعبير وعذوبة الالفاظ وسلاستها مع جزالتها وفخامتها ووضوح المعنى وحسن الاتساق وجودة الالتئام كثوب أحكم الحائك نسجهُ واجاد النقاش تطريزهُ وتوشيعهُ او كحلي أخلص الصائغ سبكهُ واتقن الجوهري ترصيعهُ . وفي كل موضوع توخوا النظم او الكتابة فيهِ نرى اللغة آتتهم مطواعةً منقادةً وفتحت لهم خزائن تحفها وجنان طرفها فنظموا من جواهرها في دواوينهم قصائد حاكت الدرر في الاسلاك أو الدراريّ في الافلاك ونثروا من ازاهيرها على صفحات كتبهم مقالات منمّقة لاحت في تدبيجها الانيق البديع كالروض المريع في فصل الربيع

الاشتقاق من جمال اللغة العربيّة

وما ذلك الاّ لانها وُضعت منذ البدء على اساس راسخ متين ضمن لها الثبات والبقاء (بالتحوّل والارتقاء) واتاح لها خاصة التشعب والتفرع ومرونة التقلب والتغيّر . ومهد لابنائها في كل عصر سبيل المضيّ في الاتساع والارتفاع ومواصلة البناء على ذلك الاساس الصخري الدهري الذي هو الاشتقاق

فالاشتقاق مجلى بهاء اللغة العربية ومظهر إعجازها ومنشأ قوتها الحيويّة ومصدر كفايتها لكلّ ما يجد ويحدث على مرّ العصور . وعليهِ يحسدها ارقى الالسنة واوسع اللغات . وبهِ تمتاز بأن يكون الفعل والاسماء الدالة على معناهُ مشتقةً بعضها من بعض ومرتبطة بعضها ببعض وملتفة بعضها حول بعض كاعضاء جسد واحد او اسرة واحدة فالمصدر بانواعهِ وتصاريف الفعل في الازمنة الثلثة — معلوماً ومجهولاً مجرداً ومزيداً — والصفة المشبهة وأفعل التفضيل وصيغ المبالغة واسماء الفاعل والمفعول والمكان والزمان والآلة — هذه كلها — يجمعها الاشتقاق الذي يعم لغتنا ويتناول كل كلمة منها تقريباً حتى يصح القول ان الاشتقاق هو اللغة وان اللغة هي الاشتقاق . وهو قوامها وعمادها . وبهِ على الخصوص كانت في تلك العصور الطوالي تؤاتي رُوّاد مجدها وورّاد شرعتها

وتسهل عليهم التعبير عن كل ما عرض لهم ان يشيروا بالنطق اليهِ او يدلوا بالكتابة عليهِ

اقتداء الخلف بالسلف في الاستخراج والوضع

وكان المتأخرون كلَّما ارادوا التعبير عن المعاني المقصودة يجدون المتقدّمين قد سبقوهم الى الدلالة عليها بما وضعوا لها من مفردات وتراكيب وقيود وضوابط يراها المتأخرون على طرف الثمام من أسهل ما يدور في الألسنة وأقرب ما تتناولهُ الأقلام

وان اتفق لهم ان يجدوا الذين تقدّموهم لم يسبقوهم الى قضاء بعض هذه الحاجات فماذا كانوا يفعلون ؟ كانوا على الفور يحذون حذو المتقدّمين في وضع الفاظ تدلّ على المعاني المبتغاة إمّا بطريق الاشتقاق بالاستعمال الحقيقيّ أو المجازيّ وهو أوسع الطرق وأعمّها وأقربها منالاً وإمّا بطريق النحت او التركيب او التعريب وهـذا الاخير أندر الطرق واقلّها استعمالاً

هذه دواوين شعرائهم العامرة بقصائد منظومة في الحماسة والفخر والحكم والوصف والغزل وما شاكلها من فنون الشعر . وكتب علمائهم وفلاسفتهم الموضوعة في الفقه والتاريخ والأدب وما عرفوهُ حينئذٍ من العلوم العقليّة والطبيعيّة وغيرها . يفتحها اليوم جهابذة النقد ويطالعون فيها ما اختاروا من المباحث والمطالب . فيأخذهم عجب لا يوصف ممّا يشاهدونهُ من آيات البراعة في صناعة الانشاء والمهارة في انتقاء الاساليب والتفنن في وضع الالفاظ وصوغ التراكيب وغير ذلك مما يدلّ على غزارة مادّة اللغة وسعة نطاقها وكفايتها للتعبير عن كلّ معنى دار في خلد متكلّم او خطر على بال كاتب

اسباب قصور اللغة في الوقت الحاضر

هكذا كانت اللغة من قبل فلماذا لم تبق كذلك الى الآن ؟ لماذا قصّرت عن مجاراة اللغات الحيّة في الوفاء بحاجات اهلها في هذا العصر ؟ والجواب أن قصورها نتج من أسباب كثيرة أهمّها ما يأتي

اولاً — مضايقة لغة العامّة لها

يراد بلغة العامّة اللهجات المختلفة الدائرة على الالسنة في جميع الاقطار العربية . وهي امّا خليط من الفصيح المصحّف والمحرّف وبعض الالفاظ المرتجلة كما في داخل بلاد العرب وغيرها من الاصقاع التي لم يختلط اهلها بالجاليات الاوربيّة واما مزيج من هذه ومن طائفة كبيرة من الكلمات الدخيلة المعرّبة عن اللغات الافرنجيّة التي تدفقت على مصر وسورية وبلاد المغرب محمولة الينا على ألسنة الافرنج انفسهم او منقولة في ما ينشر بيننا من كتبهم

وصحفهم ومجلاتهم الحافلة بذكر اسماء ما يجدّ عندهم في العلوم والفنون والاختراعات. او في ما يرد علينا من مصنوعاتهم او في ما يُنشأ لهم عندنا من المدارس والمصانع والشركات وغيرها من وسائل النشر . فاندسّت هذه الكلمات في لهجاتنا العاميّة متشابكة متداخلة بما لا مزيد عليه من الاندماج والالتحام. وقد شاعت هذه اللهجات المختلطة كل الشيوع بين جميع الناطقين بالضاد. فتراهم يولدون في احضانها ويترعرعون في اكنافها ويرضعونها مع اللبن ويتناولونها مع طعامهم وشرابهم وينشأون على سماعها من الآباء والامهات وذوي القربى وجميع الذين يعاشرونهم من الاتراب والاصحاب . ويقضون سني الطفولة ومابعدها لا يطرق آذانهم غيرها ولا تنطق ألسنتهم بسواها . واذا دخلوا المدارس الابتدائية والعالية وجدوا المعلمين والاساتيذ يكلفونهم تعلّم اللغة الفصيحة وحفظ قواعدها ولكنهم قلما يسمعونهم يتكلمون بها ليسهل عليهم الاقتداء بهم في مزاولتها واقتباس ملكة النطق بها

وقد بلغ من شدة تمكن هذه اللهجات منّا انها توشك ان تكون الآلة الوضعيّة الوحيدة للتخاطب والتفاهم . وهي في مصر وفلسطين وسورية والعراق والحجاز واليمن ونجد والسودان والمغرب وغيرها من الاقطار العربية حشو آذان السامعين وملء ألسنة المتكلمين حتى انك لتجدنها شاغلة أذهان الخطباء والكتّاب ومتحفزة كل حين للجري على أقلام هؤلاء وفي ألسنة اولئك لولا انهم يتداركون أمرهم قبل الخطابة والكتابة ويتعهّدون خزائن أذهانهم بنزع ما يعلق فيها من الكلام العامي مستبدلين به كلمات صحيحة وتراكيب فصيحة يتكلفون استخدامها لتأدية المعاني التي يرومون التعبير عنها في خطبهم وكتبهم

ومع شدة توقينا للغة العامية واحترازنا من تربّصها بنا وتحفّزها لنا لا تأمن ألسنتنا العثار بألفاظها ولا تسلم أقلامنا من الخبط في تعابيرها. ولذلك ترى الخطيب او الكاتب منّا يحيد من وقت الى آخر على حين غفلة عن جادّة اللغة الفصحى مدفوعاً بقوّة العودة الى الاصل ويستعمل كلمات وتعابير يظنّها صحيحة لكثرة ورودها في لسانه وعلى سمعه مع انهُ لا صحة لها على الاطلاق

فشيوع اللهجات العاميّة على هذا الوجه يضايق اللغة الفصيحة كلّ المضايقة ويحول دون تقدمها وارتقائها

٢ — كثرة الحاجات التي جدّت في هذا العصر

يراد بالحاجات الاشياء التي نحتاج في هذه الايام الى التعبير عنها لفظاً او كتابة . وقد بلغت من الكثرة مبلغاً شبّ عن طوق الحصر وجاوز حدّ الاحصاء . وطالما سيلها

من اواسط القرن الماضي الى الآن طمَّ عمّ أسواقنا وتناول اكبر جانب ممّا يباع فيها من العروض والامتعة والآنية والبضائع والمصنوعات وزحف جيشها على معاملنا ومخازننا وصيدلياتنا وغشي مكاتبنا ومطابعنا ومدارسنا وانديتنا ومسارحنا وملاهينا ودواوين حكوماتنا وجاس خلال بيوتنا — من احقر اكواخ الفقراء المتربين الى افخم قصور الاغنياء المترفين. هذه الاشياء كلها صدرت من اوربا واميركا واندسّت متغلغلة في ما عندنا من اشياء تتعلّق بمعايشنا وامور ترتبط بأحوالنا في قيامنا وقعودنا ودخولنا وخروجنا وصحتنا ومرضنا وتدخل في مباحثنا العلميّة والصناعيّة والطبيّة والتجاريّة والزراعيّة وغيرها وأصبحنا في اشدّ احتياج الى التعبير بالكلام والكتابة عن الوف — بل عشرات الالوف — من الاشياء الشاملة لكلّ ما عندنا من رياش وأثاث ومتاع واناء وجميع ما على اجسادنا من ثياب وملابس من قمّة الرأس الى اخمص القدم وما يباع في مخزن التاجر ودكان البدّال وحانوت العطّار من بضائع ومنسوجات ومصنوعات وعروض وسلع وعقاقير وما يعرض في علوم الطبّ والعلاج والهندسة والملاحة والطيران وسكك الحديد وصناعات البناء والحدادة والنجارة والخياطة من اصطلاحات وتعابير وعدد وآلات وادوات وما يجدّ كلّ يوم في عالم الكشف والاختراع

قلت اننا احتجنا اشدّ احتياج الى التعبير عن هذه الاشياء. ولما كان صاحب الحاجة أرعن لا يروم الاّ قضاءها وكان الذين يستطيعون قضاء شيء يسير من هذه الحاجة اقلّ جدًّا من ان يكفوا ضاق نطاق الانتظار ونضب معين الاصطبار ولم يبق لمضغوط البخار مندوحة عن الانفجار. وبحكم هذه الضرورة تملّص العامّة كلهم وبعض الخاصّة — ان لم اقل اكثرهم — من قيود الحفاظ والمراعاة وتهافتوا على هذه الاشياء الجديدة يعبّرون عنها كيفما اتفق لهم اما بالتعريب على وجوه مختلفة بلا قاعدة ولا رابطة واما باستخدام كلمات عاميّة. وهكذا عمّت الفوضى واستحكم التهاون والاهمال وتفشّى التفريط في اللغة وهي اكرم ما به نباهي ونفاخر وانفس ما تركهُ الأوائل للأواخر. وساء القلق افكار كثيرين في مصر والشام وغيرهما من الاقطار العربية فرفعوا عقيرتهم بالشكوى وصاحوا يستثيرون الهمم ويستنهضون العزائم لتلافي الحال وانقاذ اللغة من براثن اللهجات العامية الخاطفة وسيول الرطانات الاجنبيّة الجارفة. ولكن كانت شكواهم كلّ مرّة تذهب صرخة في واد ونفخة في رماد (ستأتي البقية)

القاهرة اسعد خليل داغر